**المحاضرة الرابعة:**

## السرد الاجتماعي: تسريد الواقع الاجتماعي

**" مشرد ذو أسلوب بارع و روح خفيفة، يضحك الناس ليبكيهم، و يبهرهم ليخدعهم"**

**تمهيد:**

إن القص عندما يتحرك في حيوية مع أحداث الحياة، فإن كل حكاية تمثل عندئذ مشهدا من مشاهد الحياة.

و لا ينفصل السرد من حيث أصوله التاريخية عن الحياة و الوجود لأن يمثل مكونا جوهريا في الطبيعة الإنسانية، و إذا سلمنا بأن السرد يشكل خاصية مميزة للهوية الإنسانية كان بإمكاننا حينها أن نصوغ تعريف فلسفي جديد للإنسان بأنه " كائن سارد".

إن النصوص الميثولوجية القديمة و حفريات الإنسان الأول ليست سوى سرود لحكاية الإنسان على الأرض؛ يكشف هذا الأساس الانثربولوجي عن الطبيعة الكونية والوجودية للسرد.

**تسريد الواقع الاجتماعي:**

يؤسس السرد لنوع من المعرفة الوجودية، و أي تمثيل سردي للأحداث هو في حقيقته مشروع فلسفي عميق، ذلك أن السرود و إن اختلفت طبيعة و ماهية أحداثها تشترك في الطموح الإنساني للكشف عن أسرار الوجود.

لقد أقصت العلوم الهوية و الذات و الإنسان في بعده الروحي و الفلسفي من مخابرها، وفي مقابل ذلك استطاع السرد أن يرد للإنسان هويته السليبة، و على هذا الأساس المعرفي فإنه لا يمكن حصر الاستراتيجية السردية ضمن حدود بنيوية تقزّم امتداداتها الوجودية لأن السرديات تطمح إلى تشييد عوالم ممكنة تشتغل كترميز للذات و للعالم.

و لقد ارتبط السرد دائما بالغيري في أشكاله المختلفة سواء أكان هذا الغير امرأة في مجتمع تهيمن عليه قيم الذكورة، أو كان أعجميا أو كافرا تماما مثلما ارتبط بالهامشي " المستبعد من حيز الحظوة العاطفية و الذهنية و الثقافية، و في هذا السياق تبدو الصور النمطية المكرسة عن الأعرابي البليد و الفارسي البخيل و الإفرنجي العفن و اليهودي

اللئيم منتمية إلى المنظومة ذاتها التي تخيّل إلى الأذهان نموذج المرأة باعتبارها موضوعا للنهم الجنسي و شهوة الامتلاك"

يمارس العنف التخييلي السردي "وظائف الاستبعاد و التكييف و الإخضاع التصوري بوصفها بداهات خطابية في ظل واقع كرس وضع الفوق لثقافات المركز و وضع التحت لثقافة الهامش" فلا جرم إذن أن تحتفي الكثير من السرديات بالمرأة و بالآخر بوصفها موضوعات تضمن أكبر قدر من الطرافة و الندرة التي تقترن بالغريب و العجيب المختلف الذي تأنسه النفس و تخضع لدفئ إدهاشه.

و كثيرا ما تتجلى سمة الغيرية في كتب الأخبار و بكل تجلياتها الجنسية و الجغرافية و العرقية و الدينية. و من أمثلة ذلك ما ورد في كتاب ابن الجوزي" أخبار النساء"؛ كتب الحجاج بن يوسف " اخطب امرأة جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة في قومها، ذليلة في نفسها، أمة لبعلها"

و من ذلك أيضا:" من أراد النجابة فبنات فارس، و من أراد انكاح فبنات البربر، و من أراد الخدمة فالروميات"

ففي الصورتين معا نلمس سمة الهامشية قرينة الغيرية الجنسية، و تتجلى صورة المرأة بوصفها وجود حسي قابل للاستحواذ الجسدي، و هي مخلوق يرتهن وجوده بمدى امتثاله للنهم الذكوري.

لقد مثلت السرديات دوما الوجه الخفي في مقابل الوجه المكشوف للشعر و الخطابة و المصنفات الشرعية، فألف ليلة و ليلة مثلا كانت زادا للوجدان الباطن و لستر الليل و لفضاء المهاترة و الدعة بينما كان الموطأ و ديوان الحماسة زادا للعقل الظاهر و خطابا لوضوح النهار

و غير بعيد عن هذا المعنى و في تساوق معه جاء السرد وسيلة لتمرير الأفكار و التوجهات بطريقة رمزية لمواجهة السلطة السياسية و الاجتماعية المهيمنة، فكما أن السرد قد قيد بموجهات مختلفة تمثلت في الشفاهية و ظروف التدوين التي أعادت ترتيب وقائعه و مجرياته، فقد أسهمت مكونات معرفية في هذا التشكل منها الأنساق الثقافية التي صدرت عنها المادة الحكائية في علاقتها بالواقع( السلطة و المسكوت عنه)

**بخلاء الجاحظ: توثيق للسرد و نقد للمجتمع:**

لم يقتصر دور القص في التراث العربي على خلق الإثارة المطلقة، بل لقد وُظّف كذلك" توظيفا فنيا جيدا لإثارة جوهر الحقائق الاجتماعية المحدودة" ‘ و إذا كان مصدر الإثارة في النمط الأول هو الانبهار المتجدد بالحقائق الكلية، فإن مصدر الإثارة في النمط الواقعي هو الإدراك الواعي لظواهر اجتماعية غريبة السر في غرابتها هو أنها تكشف عن غرابة الحياة، و لعل هذا ما يفسر لنا حرص بعض الكتب التراثية بتقديم ظاهرة اجتماعية واحدة تحاك حولها الأخبار و الحكايات كالكتب التي اختصت بأخبار الطفيليين و البخلاء و اللصوص و الظرفاء

و لقد كان الجاحظ واحدا من الكتاب الين تصدوا لظواهر مجتمعه بالسخرية و النقد ساعده في ذلك عبقريته و موسوعيته و فكره الثاقب المتفرد.

لقد كان مجتمع الجاحظ مجتمعا متعدد الروافد كثيف الاختلاط بين العرب المسلمين و الطارئين على البصرة من مختلف شعوب العالم، و قد انجر عن هذا التزاوج سرعة في التمازج الأمر الذي غير معالم الحضارة، فجدّت بذلك مظاهر لم يكن للعرب عهد بها، فلقد عرف العرب بالكرم و شاع كقيمة إنسانية مجدها الشعراء، إذ لم يرد في قاموسهم بخل أو بخلاء إلا ما جاء نادرا و ندرته جعلته مضربا للمثل بوصفه نموذجا شاذا و غريبا، لكن القيم قد تغيرت في المجتمع العباسي، فالتفت الجاحظ إلى دخائل النفوس و خلائق الشعوب التي عاين نماذج منها فرسم ملامحها و عرّى سلوكاتها.

و لعل البخلاء هم أطرف و أظرف نماذجه البشرية؛ لقد صورهم تصويرا واقعيا حسيا نفسيا فكاهيا و فضح خبايا منازلهم، فكان كتاب البخلاء بحق " دراسة اجتماعية نفسية تربوية وثق فيه فئة البخلاء بشكل ساخر و هزلي تحرى فيه الأبعاد الاجتماعية معبرا عن سخط الأغلبية". لقد كان بذلك قلمه غميسا في محبرة علم النفس.

" البخلاء" كتاب خليق أن يعدّ:" كتاب أخلاق و علم نفس و قصص و تاريخ و جدل، إلى كتل منطق و فلسفة و حوار"

إنه كتاب[1]:

*غريب عجيب في موضوعه و اختياره و عبقرية تأليفه، لا بصدد البخلاء و إنما بصدد اختيار نماذجهم.

---

[1]-

*كشف جوانب دقيقة من نفسيات البخلاء مما يكشف عن عمق التأمل

*و هو معرض لبعض المواقف الأخلاقية من الناس في عيشهم و حضورهم و مختلف شؤونهم

*و هو ثبت دقيق لمستوى ثقافة البخلاء و مقدار ما كان يتجلى في حوارهم من رقي في الإدراك و الفكر و الدقة و التفصيل و الشمول

*تصوير بديع لحرص البخلاء المفلسف على المال جمعا و منعا و عدهم ذلك صلاحا أو استصلاحا أو حزما و عزما أو عقلا و اهتداء.

*و سيطر على الكتاب المنطق البسيكولوجيا و الجدل إزاء الدعابة و الغرابة.

و يعد الكتاب مصدر توثيق سردي يكشف لنا فيه عن طريق السرد الطبائع، علاوة على احتوائه على أسماء المشاهير و أسماء البلدان و الأماكن ( الكتاب موسوعة علمية أدبية جغرافية تاريخية، اجتمعت فيه شروط التوثيق و إن انتابها شيئ من التخييل عكسته شخصيته المتميزة)

لقد أحب الجاحظ الحياة بكل ما فيها فطوّع السرد لخدمتها بأن اختبر و انتقى و عوّض عما افتقد فأربى، و أطل على دواخل الناس فتطرق لاعتمالات نفوسهم فركب متن الدعابة فانساب سمحا لا إبهام في عباراته، فكان بحق فيلسوف المرايا.، ما إن يظهر شخص جديد حتى يعرض صوره أمام مراياه، فكأن عمق فكره الحياتي لم يقف عند خطوط الملامح و الآنيات، بل نظر إلى إنسان تلك الملامح قصده و عده واحدا بينما تختلف الظواهر فعدل عنها إلى إنسانية الإنسان ذاته

تقصّى الجاحظ ظواهر مجتمعه و تصدى لما قبح منها:" تسيطر عليه الأصوات من داخل الأشياء فيسمعها بغير أذن، إلا أذن العقل و يهتم للجزئيات الدقيقة اهتمامه للكليات العظيمة، و شغله في أكثره من الداخل يكشفه ليلاقي به الخارج و إذا الشيئ لعبة من لعب الغوى لعقله اللاهي و دماغه الناشط"

فكم و كم من الأدباء و العلماء رأوا ما رآه الجاحظ فأغفلوا و انصرفوا لكنه رأى وتقصى: " و سكب شعاع مقلتيه المحمرتين الناتئتين كتبا و رسائل فجاء مجموعها دائرة معارف عصره...لتمايزها باللطف و الغرابة و التشويق و دقة المعرفة الدعابة"

**المقامة من الأبعاد المضمونية إلى الأبعاد الحضارية:**

ليست المقامة قالبا جميلا فحسب، و ليست عرضا لقدرات المؤلف اللغوية، لكنها تعبير ناقد للمجتمع، بطلها إنسان مشرد ذو أسلوب بارع و روح خفيفة، يضحك الناس ليبكيهم و يبهرهم ليخدعهم.

إنها خطاب ناقد و ما تنطوي عليه من سخرية و تهكم ما هو إلا ستار رقيق ناعم تتوارى خلفه فجيعة إنسانية تفصح عن تغير القيم و انقلابها:

**هذا الزمان مشوم كما تراه غشوم**

**الحمق فيه مليح و العقل عيب و لوم**

**والمال طيف و لكن حول اللئام يحوم([1])**

أ-الأبعاد المضمونية :

إذا كان الجاحظ يقوم بإعلان حضوره ثم لا ينسحب تاركا أصداء صوته عالية ، فإن الهمذاني يباغت القارئ في كل مقامة بعبارة" حدثنا عيسى بن هشام" و هو بعدها يرفض الانسحاب من القصة كما يفعل الجاحظ و لا يبقي على صوته إلا همسا لأنه لا يتحدث إلا من وراء حجاب؛ لقد أناب عنه عيسى بن هشام و أبا الفتح الاسكندري في بث المغزى.

لقد حقق بديع الزمان الهمذاني تشكيلا فنيا جماليا آخر داخل التشكيل الفني و هو السرد من خلال الراوي و التستر خلف قناعه للبوح و التشفّي.

و يتمثل بناء المقامة في تداخل موقفين قصصيين: موقف عام نحس فيه بحركة الحياة الجمعية المضطربة التي يكاد الإنسان يضل طريقه فيها، ثم موقف فردي خاص يتبدى من خلال الموقف الجمعي المضطرب، و لهذا فإن المقامات تتلاعب بمبدأ التحويل من التوازن إلى اللاتوازن أو العكس.

و يمثل كل من عيسى بن هشام و أبي الفتح الاسكندري المكدي المشرد المحتال الذي يعيش على هامش الحياة، و لم يكن هدف الهمذاني نقد طبقة المكدين و الطفيليين ، بل إنه وجد فيهم رمزا للضياع الفردي و الاجتماعي ووظف في سبيل ذلك التصوير الكاريكاتيري الذي يبرز المفارقات التي تثير المرارة.

إن التصوير الكاريكاتيري المقامي ليس الغرض من وراءه الضحك فحسب و إنما

[1]- بديع الزمان الهمذاني" المقامة المجاعية"

يعكس إحساسا بالتهديد و هشاشة الذات مما يضعنا أمام إشكالات وجودية إذ تغدو ممارسة الحيلة و الكدية سلوكا انتقاميا من واقع يشيئ الإنسان

إن شعرية الستار في المقامة تستدعي رفع هذا الستار عن الدلالة المتوارية خلف التشكيلات البلاغية المرموزة. إن هذا التخفي هو البؤرة المركزية التي تتأسس عليها بنية المقامة بين جدلية الظاهر و المستور.

ب-الأبعاد الثقافية و الحضارية:

يمثل كل من عيسى بن هشام و الاسكندري جانبا من كيان الهمذاني الفكري و الاجتماعي، أو بالأحرى كيان إنسان واع بحركة الحياة و بأزمات عصره: فعيسى بن هشام يمثل الجانب الذي يقف من الحياة المضطربة موقف تأمل و هو في الوقت نفسه لا يستطيع أن يعزل نفسه عن حركتها أما أبو الفتح الاسكندري فيمثل الجانب الآخر الذي يبحث عن حل يستطيع به مواصلة الحياة وسط هذه الفوضى و لذا فهو يستغل هذه الفوضى و يصطنع موقفا ما يخدع به الجماعة ليحصل على مكسب و قد لا يجد الحل إلا وهما ، إن الشخصين متلازمان لأن كلاهما يمثل ظل الآخر؛ عيسى بن هشام هو وحده الذي يكشف حيل أبي الفتح كما أن أبي الفتح لا يبوح بعلته النفسية التي تعد صدى للعلل الاجتماعية إلا لعيسى بن هشام[١]

و لقد كانت المقامة صدى للتحولات الحضارية التي عرفها المجتمع العباسي قي القرن الرابع الهجري، فمثلا ترصد المقامة البغدادية أصنافا من الأطعمة( اللوزينج، الشواء،الحلوى)، دقّق الهمذاني في توصيفها:" أفرز لأبي زيد من هذا الشواء ثم زن له من تلك الحلواء و اختر له من تلك الأطباق و انضد عليها من أوراق الرقاق ثم رش عليها شيئا من ماء السماق...قلت لصاحب الحلوى زن لأبي زيد من اللوزنج رطلين فهو أجرى في الحلوق و أمضى في العروق و ليكن ليلي العمر يومي النشر رقيق القشر كثيف الحشو كوكبي الدهن يذوب كالصمغ قبل المضغ "([٢]) لقد أبدى الهمذاني براعة في التصوير حيث رسم لوحة فنية لأصناف الأطعمة مما يحمل المتلقي على استحضار المشهد؛ فأنت سائح بين دروب هذا الوصف لا تتخيل أطيب المأكولات و أشهى الحلويات فحسب، بل و تحضر الغذاء مع البطل في أحد أفخم المطاعم العصرية و

---

[١]- المرجع السابق ص:٩١

[٢]- محمد محي الدين" مقامات بديع الزمان الهمذاني" ص:٦٦

توشك أن تتذوق الشواء لنضجه و مرقه و تتذوق الحلوى من كثرة حشوها و طراوتها لتختم ذلك بشربة ماء الثلج:" ثم قلت يا أبا زيد ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج ليقمع هذه الصارة و يفتأ هذه اللقم الحارة "[1] و لكن كيف لرجل عاش في ذاك العصر أن يعرف ماء الثلج إلا إذا أراد أن يقتحم عصرنا أو يفحمنا نحن في عصره؟؟ و لقد يلتبس علينا الأمر حتى نكاد لا نعرف أين ينتهي الواقع و يبدأ الخيال و أين يبدأ الواقع و ينتهي الخيال.

إن هذا التفصيل في التصوير يوحي بالترف والبذخ و يعكس مظاهر التمدن التي شهدتها الحضارة العربية.

فالمقامة على هذا النحو خطرة وجدانية و لمعة فكرية و لمحة من لمحات الدعابة و الهزل، يقدم فيها الكاتب بطله بوصفه مشرد محتال فطن حذق خفيف الظل عبر أيقونات تختزل الكثير من الألفاظ لكنها تنطوي على وفر من الدلالات اللامتناهية التي تعرّي الواقع المفجع و تفضحه.

---

[1]- المرجع السابق ص:٦٦